قوّة العلم والعلماء

لجناب العالم جبر افندي ضومط مدرس العربية في المدرسة الكلية

هي القوّة التي ميّزت الانسان عن الحيوان ورفعت منار المدنيّة والعمران. هي القوّة التي عنت لها القوّات الطبيعيّة فأمكت الانسان من مقاودها واطلعته على اسرارها وغوامضها فاظهرت منها ما كان مستوراً ونظم ما كان مبدّداً منثوراً هي القوة التي تطاول معها الى السموات العلى ونقّب بها عن دفائن الارضين السفلى واستعان بها على حلّ ما اعضل من المشكلات فاهتدى الى معرفة ما كان في عداد المستحيلات وما لو ذكرتُ بعضهُ على بعض العامة لرُميتُ بالجنون ونقوّلوا عليّ ما كان وما لا يكون

هي التي ذلّلت البحار فعلا الانسان متونها بمراكبهِ وخاض عُبابها بسُنن تجارتهِ ودوارع حربهِ لايبالي بها وان قامت مياهها لجّجاً عظاماً وهبّت هوابُّها هلاكاً وموتاً زؤاماً هي القوّة التي جعلت الهواء مطيّةً تكاد تكون ذلولاً بعد ما شمخ بانفهِ عن ان يُعطي القيادَ دهراً طويلاً فعلت البالونات الى حيث قصر السحاب وصولاً

ولايهولكم ما ذكرتهُ عن قوة العلم فما ان كان الاّ يسيراً صغيراً وبرقشة على غير العارف يهوّل بها نهويلاً فللعلم قوّة اخرى لا تُدرَك غايتها عظمةً وجلالاً ولا يبلغ الواصفون من وصفها وان اطالوا مقالاً واوسعوا لها في ميادين الطروس مجالاً. قوّة ازالت عن العقل من براقع الجهل غشاوة بعد غشاوة. وبدّدت من كتائب الاوهام كتيبةً بعد كتيبة. فظهر الحق ودُحرَت الاباطيل دحوراً

قوّة غيّرت العقل ومجاري تصوراتهِ تغييراً وقضت ان يكون لهُ من ميتة الجهل بعثةً ونشوراً فبيّنت لهُ من صواب الراي وسدادهِ ما اهتدى معهُ الى سبيل رَشادهِ فنعمت القوّة قوة العلم جعلت الانسان سيد المخلوقات الارضيّة والحاكم يُرجَع الى احكامهِ بين البريّة

ولكم كان الجهل يشنُّ من غارة شعواء تذهب بالمستضعفة من الناس قريسةً للاقوياء ولكم كان يأتي بظلامة عمياء وبليّة دهماء وشنيعة شنعاء تُذبَّح معها الابناء وتضحّى لها الامهات والآباء الى ان ذهب العلم بآثار الجهل هذه ادراج الرياح ونادى مناديهِ حيّ على الفلاح فسنّت النظامات والاحكام وعُينت وظائف الامراء والحكام ووضعت قواعد الفنون والصناعات ومناهج التجارة والمعاملات. هذا فضلاً عمّا توصل بهِ اليهِ من معرفة نواميس الجاذبيّة العامّة وانتظامات الافلاك الخاصّة. ومعرفة مقادير السيارات وما لها من الابعاد

والمدّات وما يُحدِثهُ بعضها في بعض من الاضطرابات وما هنالك من المبادرات والانقلابات فكان مما ترتب على قوة هذه المعرفة العلميّة أنْ مات التول بدلالات النجوم الوضعيّة ومات معها اعتقاد السعد والنحس فيها ونسبة ما كان يُنسَبُ اليها ممّا لا يصحُّ نسبتهُ اليها ومات ايضًا حوت القمر وتبين الشمس وآلهة الامم الاقدمين كجوبيتر ومارس ونبتون وغيرهم ممّا ذكر في اساطير الاولين ولله درّ من قال

ابن الرواية بل ابن النجوم وما صاغوهُ من زُخرفٍ فيها ومن كذبِ
نخرّصًا واحاديثًا ملفّقةً ليست بنبعٍ إذا عدّت ولا غربِ
عجائبًا زعموا الايام مجتلةً عنهنّ في صفر الاصفار او رجبِ
وخوّفوا الناس من دهياء مظلمةٍ اذا بدا الكوكب الغربيُّ ذو الذنبِ
وصيّروا الابرجَ العليا مرتبةً ما كان منقلبًا او غير منقلبِ
يقضون بالامر عنها وهي غافلةٌ ما دار في فلكٍ منها وفي قطبِ

واما تأثير قوّة العلم في معرفة الكهربائيّة والمغنطيسيّة وقوانين الألفة الكيماوية وشرائع النور والحرارة واستخدام البخار في الصناعات والتجارة وغيرها من السكك الحديديّة والبواخر التجاريّة والحربيّة فامر يطول شرحهُ ويعجزنا وصفهُ. والحق اذا تأمّل متأمل رأى من القوّة ما تحار له عقول الخاصّة فضلاً عن عقول العامّة ويكاد يظنها الكثيرون ضربًا من المعجزات. وحُكي عن كثيرين من امم الهند وغيرهم من النوم السحيح انهم يظنون في الآلات البخارية والكهربائيّة ارواحًا تدير حركاتها وسكناتها وتفعل تلك الافعال الصادرة عنها ومثل هؤلاء فليس من قوة في الكون تستطيع على انتزاع هذه الاوهام من عقولهم غير قوة العلم فانها القوّة التي تفعل ما لا تفعله الكتائب والنيازك وتسطو على ما لا تسطو عليهِ الرماح الخطيّة والمواضي المشرفيّة بل ما تستطيعهُ قوّة العلم في استئصال شأفة مثل هذه الاوهام الفاسدة لمّا لا تستطيعهُ جنود الممالك العظيمة عن آخرها متفرقة كانت او مجتمعة معًا

هذه بنادق الامم الغربيّة ذات الطلقات المتعدّدة ومدافعها الضخمة وجنودها المدرّبة وافرادها الطامعة في المكاسب الحريصة على توفير الارباح جميع هذه لم تستطع ولن تستطيع ان تغيّر مثقال ذرّة من عقول امم افريقية والهند وما يدخلها من الاوهام والمعتقدات الفاسدة. وما لم تدخل قوّة العلم فتهدم ما عندهم من اسوار الاوهام ومعاقل المعتقدات وحصون الجهل والخرافات فلا من مطمع بازالتها من عقولهم ونفوسهم ما كرّت الايام وتعاقبت السنون والاحقاب

ولقد ادرك هذه الحقيقة كثيرون من اهل الحميّة واصحاب الغيرة على ترقية شأن الانسانيّة فبعثوا اليهم بطلائع من قوّات العلم وفي مأمولهم ان تفعل الاقلام غير ما يفعله الحسام ولسوف يتحقق لهم صحة ما ارتأوهُ مع الايام

واما العلماء وهم امراء النوع الانساني وقادته في سبيل الفلاح وهُدَاته في معارج المدنيّة والارتقاء فقوتهم لاعظم ما يظن واشد في اعتقادي مما تقدّرونهُ ايها الكرام فانهم الضعفاء الاقوياء والسوقة الامراء. هم القوم الّذين لا يُعتّب عليهم معتّب الاّ منهم ولا يجرح آراءهم واقوالهم الاّ العلماء امثالهم هم الّذين يرجع الى آرائهم في الحادثات المشكلات ويعتمد على اقوالهم في الغامضات والمغيبات هم الّذين اذا تناقل الناس قول حكمةٍ مثلاً فانما يتناقلونهُ عنهم. وهذا شأنهم مذ قام الانسان الى الآن وفي كل طور من اطوار المدنيّة والعمران واليكم التاريخ فانهُ شاهد عدل يشهد بما كان وتنطبق شهادتهُ على ما في العيان فما اثارت الامم الغابرة حربًا ولا شنّت غارة الاّ بعد ان اعتمدت مشورة رجال العلم وهم اهل الدين في تلك الايام والمعقبون على الامراء والحكام فان شاءوا غضبت الآلهة على البشر وان شاءوا رضيت

واما فلاسفتهم العظام الّذين سارت بهم الامثال كسقراط وافلاطون وارسطو وغيرهم من كبار العلماء فقوتهم اعظم من ان يقدّرها مقدّر او يبالغ فيها مبالغ فانها حملت معاصريهم ومَن جاء بعدهم من اجيالهم أن حسبوهم في مصاف الآلهة واقاموا لهم في هياكلهم من التماثيل ما كانوا يقيمون مثلهُ لمعبوداتهم وختموا على علومهم من بعدهم فكانت اقوالهم وآراؤهم هي المتابع فيها والمعوّل عليها وما زالت كذلك الى الآن يتناقلها الناس فيما بينهم فتغير من افكارهم واقوالهم وتجاري تصوّراتهم وتصرفاتهم وهم لا يشعرون وعلى الحقيقة انها كانت بمثابة حياةٍ تحيا بها عقول العقلاء وقوّةٍ يعتمد عليها العلماء والامراء ويتغذّى بها الاغنياء والفقراء

وما عقب عليهم في مدركاتهم العلميّة والادبيّة فنخ من بعضها وغيّر البعض الآخر الاّ من جاء بعدهم من جهابذة العلماء واكابر الفلاسفة والحكماء. فاذًا ما زالت قوة العلماء في السائدة على كل القوّات والمأخوذ بها بين اهل المراتب والطبقات بل ما زالت اسماؤهم حيّةً حتّى الآن وما زلنا نعت الوزراء والعظماء وجلة الملوك والامراء بنعوت مأخوذةٍ من تلك الاسماء ولله درُّ من قال

مضى ذكر الملوك بكل عصرٍ وذكر السوقة العلماء باقٍ

فلا تظن يا شيشرون الرومان انك زلت من عالم الوجود فقد اقام لك ابناء جلدتك من بعد مماتك تمثالاً جعلوهُ بين تماثيل آلهتهم ودعوك ربّ البلاغة والخطابة وما دار

لسان احدهم ببليغ عبارة من بعدك الاَّ استمدَّها منك ولا تكلَّف متكلِّف حجةً او برهانًا الاَّ تقلاَّ عنك وقد كنت وما زلت امام شيوخهم ومهذِّب شبانهم

وانت يا كنفوشيوس فيلسوف الصين مرَّ عليك نيِّف والفا سنة في التراب واختلطت ذرَّات جسمك مع ذرات تربة الصين فلم تعد تتمايز عنها شيئًا ولو نشرت الآن لرأيت انك ما زلت في عالم الحياة وان قونك ما زالت تتعاظم كلما مرَّت عليك الايام والسنون الى ان اصبحت ونيفٌ واربعمائة مليون من الخلائق يقولون بقولك ويأخذون بما وضعته من آدابك وسننك ومَن فيهم من الامراء والعظماء والقضاة والحكماء واكابر الجند واعيان الامَّة جميع هؤلاء حتَّى سلطانهم الاعظم ابن السماء يوقدون الشموع والبخور كلَّ يوم امام تماثيلك ويتوجهون اليك بنوع من الصلاة والعبادة يسألون الهتهم ان تقدِّرهم على فهم حِكَمك والقضاء بموجب سننك واذا وُلد لهم مولود تقرَّبوا به اليك يعلمونه من اعظامك واجلالك ويلقنونه من مبادىء علمك وحكمتك حتَّى كأني بالامَّة الصينيَّة تحيا بك وتتنفَّس بانفاس آدابك. وانت ايها الفخر الرازي يا ابن خطيب الري لو نُشرت من ضريحك لرأيت كتبك العقليَّة والنقليَّة وشروحك التفسيريَّة تتناقل بين جلة القوم وافاضلهم. وكذلك انت يا صاحب الاحياء ما زلت حيًّا تفعل عظاتك وآراؤك في النفوس والعقول

وانت يا صاحب الكشاف والبيان ما زال بيانك غالبًا على كل بيان وما زلت امامًا للبلغاء في اساس بلاغتك ونابغة فيما اوتيتَ من سحر نوابغك ومعجب فصاحتك. وما قدَّمتُ خطيب الرومان وحكيم الصين عليك وعلى من ذكرت من ابناء قومك الفضلاء الاَّ لتقدُّمها زمانًا ولابيِّن لكم ايضًا ايها السادة ان قوَّة العلماء هي على ما رأيتم حتى بين قوم لا كتاب لهم. ابو بعد هذا ينكر منكر قوة العلم والعلماء ام يتجاسر متجاسرٌ ان يضع لها حدًّا او يمثِّلها بقوَّة اخرى غيرها فابن منها قوَّة الجاذبيَّة العامَّة فانَّ هذه تربط عالم الجوامد الميتة بعضها ببعض وتلك تربط عالم العقول المتصرفة بعالم الجماد وتسعى بها في مراقي الكمال والعظمة

وما لي وللاعصر الخالية والامم الغابرة فانما الاولى بي ان استلفت انظاركم لمحةً الى الجيل الحاضر والى قوة العلم والعلماء فيه فانها اعني قوة العلم قوة تكاد تكون اعظم الثرًا ما سلف في جميع القرون الماضية مجتمعة معًا قوَّة لا تزال تراها تخترع من عالم العناصر والهيولى وتغيِّر من مظاهر العمران الخارجي بما يوجب الرقاء شأنه وعظمة آثاره وراحة سكانه وكذلك قوة العلماء فانها لا تنفك تؤثر في عقل الناس وآدابهم وافكارهم وتصوراتهم فترفع افكارهم عن الخسائس والسفاسف الى ما هو اعلى واسمى وتصوراتهم عن البسائط الى ما هو اجل وارقى

الى تصورات عليها ابهة الجلال والعظمة ورواء الكمالات الانسانيّة

واني لموقن ايها السادة انكم لا تشكون في عظمة قوة العلماء ولا في افادة العلم للعمران البشري عمومًا على اني ارى انّ هذا ليس هو موقف الاهميّة وانما موقف الاهميّة الحقة في أن ما هي المعارف التي توجب لصاحبها شانًا ومكانةً في العمران حيثما كان من غير تخلّف في اثرها اصلاً وحسبكم استاذكم في بسط الكلام شيئًا في هذا الشان فاقول انّ من المعارف ما تعم الحاجة اليها في ذاتها امّا لانها وسيلة لنقل القوة العلميّة او لمعرفة كيفيّة استخدامها والقدر اللازم منها ونوعه وامّا لتوقف المعاملات بين الافراد عليها . ومنها ما هي خاصّة وليس لنا بها حاجة الآن

امّا المعارف العامّة الحاجة اليها فاذكر منها ثلاثة انواع وهي اللغة اولاً ومعرفة اخلاق الناس ومشاربهم ثانيًا ومعرفة نظامات المملكة وقوانينها التي تجري بمقتضاها جميع اصناف المعاملات ثالثًا فمن جمع في شخصه هذه المعارف الثلاث فقد حصّل من القوّة ما يضمن له بين اقرانه من المكانة عاليها ومن المرتبة خطيرها وجليلها

امّا اللغة فلانها ترجمان الافكار بين المتكلمين والموصل الذي تنتقل عليه القوّة الفكريّة الى اذهان السامعين بل هي مرآة المتكلم ترى فيها افكارهُ واخلاقهُ وحسن آدابه ومبلغ تهذيبه . ولا ادلّ على خطر المرء من لسانه فاذا تكلم انزله السامعون في المنزلة التي يستحقها فيضعون منه او يرفعون على حسب ما يسمعون واللغة في ذاتها خلابة تسور بذي اللبانة عن هواه والحسن البيان موقع في النفوس ما من موقع وراءهُ ولنثرات البليغ اسحر في الالباب من نثرات الراقي وألعب بالاعطاف من حميّا الساقي وربّ ذي بلاغة يذهل السامعين عن انفسهم ويشغلهم عن اخذ انفاسهم فيتغيبون عن الوجود بما ينثهُ عليهم من نثرات بلاغته ويدير عليهم من سكر بيانه ورقيق عبارته

ولا ارى اولى بحسن البيان وقوة البلاغة من اعيان القوم ونبلائهم واصحاب الوجاهة واغنيائهم فانهم لو اضافوا هذه على ما خصّهم به المولى لبلغوا مبلغًا لا ينالهُ المتناول ويقصر عن ادراكهِ المتناول . والعجب من امثالهم أنّي يهملون اللغة ويضربون عن قوة البلاغة وحسن البيان زينتهم اذا ارادوا تزينًا وكمالهم اذا ارادوا كمالاً بل هو منشأ تطولهم على الناس وعنوان فضلهم بين الجلاّس ولا غرابة بعدهُ اذا غالى الناس في الاعجاب بهم على ما غالى الشاعر فيمن كان من قبلهم حيث يقول

معسول اطراف الحديث كأنّما يسقي المسامع سكرًا او سكرا
اني لأقسم لو تجسّد لفظهُ انثت نحور الغانيات الجوهرا

واما معرفة اخلاق الناس ومشاربهم فقوّة ما بعدها من قوّة فانّ من عرف اخلاق شخص ومشاربهُ فقد ملك قيادهُ واصبح يديرهُ كيف شاء ويحيلهُ على ما شاء فيسرّهُ ويسوءهُ ويغنيهِ ويفقرهُ ويخدمهُ ويستخدمهُ ولا ارى اجهل من رجل يطلب السيادة في قومٍ وهو لا يعرف شيئًا من طباعهم ولا من اخلاقهم ومشاربهم ولا اجهل كذلك ممّن يتصدّى لحمل الكافة على امر او لتغييرهم عنهُ وهو لا يعلم ما الذي يدعو الى اقبالهم ولا ما يوجب نفورهم والامر الاخير هو معرفة النظامات والقوانين التي يجري بمقتضاها التعامل بين افراد الناس ويعين لكل حقوقهُ وتفرض عليهِ واجباتهُ ولا يخطر لي هنا ايضًا الاّ مزيد الاختصار ولذلك فيكفيني الالماع الى ان هذه النظامات والقوانين انما يصونها الملك والسلطان والامّة اجمعًا ولهذا كانت قوتها قوة هؤلاء اجمعين ومن عرفها واتقن علمها فقد جعل على جانبهِ قوة المملكة باسرها من علمائها وقضاتها واصحاب الامر والنهي فيها الى سائر من سواهم من اهل المراتب والطبقات ومن كان على جانبهِ مثل هذه القوة فاحرِ بهِ ان يكون ذا شأن ومكانة بين اقرانهِ ما بعدها من شأن ولا مكانة

ثم إنّ من جملة النظامات والقوانين ما وُضع لخير العموم منظورًا معهُ الى ترقية شؤونهم وتحسين احوالهم في الحال والمستقبل معًا ولا يخفى ان هذه النظامات انّما وُضعت بعد التحري والنظر وطول الاختبار وتوكّل الى من يقيمون بمناصبها فمن البين اذن أن اصحاب هذه المناصب هم ذوو قوة ووجاهة لتوقف النفع العام عليهم على ان قوتهم انما تقوم بمعرفة تلك المسوّغات فاذا جهلوها فلا يفيد وجودهم في مناصبها المخصوصة شيئًا وعندي بل عند جميعكم انّ الذين يطلبون الوجاهة والكرامة بالتصدي لهذه المناصب المهمة فعليهم ان يطلبوا العلم والنظامات الموضوعة لها وينقبوا في معرفتها والغاية من وضعها واسباب ذلك جميعهِ فيحصل لهم بذلك ما يرغبون ويتنافسون في تحصيلهِ من القوة وتوابعها من الاكرام والتجلّة والاّ كانوا خشبًا مسنّدةً تانف منهم مراكزهم وتستغيث تطلب ابعادهم عنها لعدم اهليتهم

بقيَ علوم اخرى غير هذه على ان تلك العلوم لا تعم الحاجة اليها ولا يترتب نفعها المادي لاهلها انما نفعها في ترقية شأن العالم عمومًا وهي متروكة لاربابها من اهل العلم في كل عصر ممن لا تهمهم المناصب والرتب ولا يحفلون بالقوة الظاهرة من الاموال والمقتنيات يصرفون انظارهم الى موضوع مخصوص ولا يزالون في التنقيب عنهُ الى ان يبلغوا فيهِ مبلغ الطاقة الممكنة لهم في جيلهم وهؤلاء قد يفطن لهم العالم في حياتهم فيوفيهم حقوقهم وقد لا يفطن لذلك حتّى بعد مماتهم فيذكرون حينئذٍ بما عملوا ويبقى تأثيرهم في الكون واهلهِ على مرّ الايام الى ما شاء الله

(ثم التفت الى الذين انهوا دروسهم المدرسيَّة وخاطبهم قائلاً) اتقدَّم اليكم الآ تخافوا ان يحبط سعيكم في طلب العلم ولا يداخلكم شك في انكم ستكونون في مقدمة رجال العمران حيثما كنتم وذلك اذا اعتمدتم على قوة العلم والمعرفة ولا سيما فيما تعم اليهِ الحاجة بين ابناء جلدتكم فوجهوا انتباهكم لتحصلوا على كل ما يمكنكم تحصيلهُ من حسن البيان والبلاغة فان ذلك وسيلة للتفاهم وواسطة لنقل قوة العلم الَّتي فيكم الى من يجاوركم والاَّ ذهبت ضياعاً لان القوة اذا لم يكن لها من موصل ينقلها لم يكن لها من اثر محسوس كما لا يخفى على علمكم

وكذلك عليكم بمعرفة اخلاق الناس واطباعهم ومشاربهم ودرجات عقولهم واميالهم الادبيَّة فانكم بذلك تعرفون نوع القوة الَّتي ينبغي ان تستخدموها في سبيل منفعتهم وترقية شؤونهم وتحملونهم على اعتباركم والانتصاح بنصائحكم

واهم من هذه جميعها ان تنتقهوا ولا سيما غير الاطباء منكم بدرس نظامات دولتنا العليَّة ومسنوناتها المبنيَّة على الحكمة والعدالة والمقصود منها صلاح حال الجمهور وفلاح احوالهم فاذا فعلتم ذلك لم يجسر متجاسر ان يفتات عليكم في حقوقكم ولا أن يلبس عليكم في واجباتكم فترتعون آمنين مطمئنين في ظل سلطاننا الاعظم

تعليم النساء[1]

لجناب شكري افندي سيرو

قال اللورد دربي احد اشراف الانجليز واعظم ساستهم "اننا نحن معاشر الانجليز اذا اردنا ان ننتدب رجلاً لمنصب عالٍ او مهمة ذات شأن سألنا اولاً عن صفات زوجتهِ لا عن صفاتهِ". ومعلوم ان الزوجة الحكيمة المتهذبة تؤثر اعظم تأثير في زوجها فاذا شرع في عمل اعانتهُ عليهِ ووازرتهُ فيهِ وامدتهُ برأيها وان لم يكن ذلك في وسعها مهَّدت لهُ طريق العمل واراحت بالهُ من هموم المنزل والعائلة وجعلت بيتهُ ولو حقيرًا مثل احسن القصور نظافةً وترتيبًا فيباشر اعمالهُ مطمئن البال مشروح الخاطر ولسان حالهِ يقول

هذهِ لذة الحياة وهذي ايها الناسُ غبطة الانسان

واما اذا كانت سليطة عديمة التربية والتهذيب فانها تنغص حياة من اصابتهُ نوائب الدهر فكان لها زوجًا وتجعل بيتهُ ملجأً للهموم والغموم ومباءة للشدة والنكد . وكم من

(١) من خطبة تلاها في امتحان مدرسة البنات الاميركية بمصر